أفكار ستبقى ساخنة

رؤية في مسائل التجديد والتسامح والنهضة

الشيخ عبدالله اليوسف



أفكار ستبقى ساخنة

رؤية في مسائل التجديد
والتسامح والنهضة

عبدالله أحمد اليوسف

أفكار ستبقى ساخنة

رؤية في مسائل التجديد
والتسامح والنهضة

ⓒ أطياف للنشر والتوزيع، ١٤٣٢هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
اليوسف، عبدالله أحمد
أفكار ستبقى ساخنة. / عبدالله أحمد اليوسف - القطيف، ١٤٣٢هـ.
٧١ ص: ١٤ × ٢١ سم
ردمك : ٨ - ٨ - ٩٠٠٤٢ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - الفكر الإسلامي ٢- الدعوة الإسلامية أ. العنوان
ديوي ٩, ١٨٩ ٣٢٧٣/ ١٤٣٢
رقم الإيداع: ٣٢٧٣/ ١٤٣٢
ردمك : ٨ - ٨ - ٩٠٠٤٢ - ٦٠٣ - ٩٧٨

الطبعة الأولى

1432هـ - 2011م



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾

سورة الأعراف، الآية: ١٩٩.

المقدمة

توجد مجموعة من المسائل الفكرية التي تشغل العقل المسلم المعاصر، وهي بحاجة لبيان وتوضيح وتفصيل بما يزيل عنها الكثير من الالتباسات المفاهيمية والمعرفية والفكرية.

وفي هذا العصر، عصر التزاحم الفكري والثقافي، وتوالد الإشكاليات المعقدة، والأسئلة الباحثة عن أجوبة، واختلاط المفاهيم والأفكار المتغايرة، نحتاج إلى مجاهر مكبرة لفرز الأفكار الصحيحة من الخاطئة، وما هو منسوب إلى الدين من غيره، وذلك من خلال العودة إلى مداميك الأفكار وأصولها، واستنطاق النصوص الدينية، والابتعاد عن الضغوط الظرفية في تبني الأفكار أو رفضها.

وفي هذا الكتاب مناقشة لبعض الأفكار المتداولة، وتقديم رؤية لعدة مسائل فكرية مهمة: كالتجديد والإصلاح الفكري،

والعنف والتسامح، والتقدم والتراجع الحضاري، واحترام حقوق الإنسان، وإشكالية بعض المصطلحات والمفاهيم الحديثة... وغيرها من الأفكار التي كانت وما زالت وستبقى ساخنة، لأنها تتناول مسائل في غاية الأهمية، وتتصل بحياة الأفراد والمجتمعات في آن واحد.

سائلاً المولى عز وجل أن أكون قد وفقتُ في الإجابة على بعض التساؤلات المعاصرة، وتجلية بعض الأفكار محل الدراسة والبحث، بما يقدم فائدة جديدة للمكتبة العربية والإسلامية.

وختاماً... أبتهل إلى الله عز وجل أن يجعل هذا الكتاب في ميزان أعمالي، وإن ينفعني به في آخرتي ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، إنه - تبارك وتعالى - محط الرجاء، وغاية الأمل، وينبوع الرحمة والفيض والعطاء.

والله المستعان

عبد الله أحمد اليوسف

الاثنين ٥ صفر ١٤٣٢هـ

١٠ يناير ٢٠١١م

الفكر الإسلامي وتساؤلات العصر

المقصود بالفكر الإسلامي هنا هو إنتاج علماء الإسلام للمعرفة والفكر الإسلامي، وهو بالطبع يختلف عن (الدين) كمعرفة إلهية مقدسة، فالإنتاج الفكري للعلماء والمفكرين والمثقفين الإسلاميين ما هو إلا اجتهادات وآراء لا ترقى لمستوى العصمة أو أن لا يطالها النقد العلمي.

وقد كان لظروف كل عصر وزمان أثره الفاعل في كيفية ونوعية المنتج الفكري والثقافي، وقد ساهمت عصور التخلف والتقهقر الحضاري للأمة في انعزال الفكر الإسلامي في تلك الحقب التاريخية من واقع الحياة، وميل الإنتاج الفكري والثقافي إلى التجريد النظري البعيد عن واقع المسلمين مما أدى إلى نشوء فجوات عميقة بين ما يعيشه المسلمون من مشاكل وهموم وما ينتجه المفكرون والعلماء من أفكار مثالية وثقافة نظرية أبعد ما تكون عن دنيا الواقع وإن كانت مفيدة على المستوى النظري والعقلي.

وقد غلب على إنتاج المفكرين الإسلاميين في العقود التي رافقت عصور التخلف الاهتمام بقضايا تقليدية أشبعت بحثاً ودراسة بدل الاهتمام بقضايا الحاضر، كما أنه غلب عليه الجمود وعدم التطور، وعدم معالجة القضايا التي تهم المجتمع والأمة والاقتصار على قضايا الفرد ومسائله الشرعية.

ولكن الفكر الإسلامي المعاصر بدأ يتطور بصورة مطردة وسريعة وخصوصاً منذ عقد الثمانينيات من القرن الماضي وأخذ يهتم بقضايا لم تكن مطروقة من قبل أو لم تشبع بحثاً ودراسة واستدلالاً.

ولعل من أبرز ملامح المنتج الفكري والثقافي الجديد هو التوجه لقضايا العصر والعمل على إيجاد الحلول المعرفية والفكرية لكثير من شواغل العصر.

ومن ملامحه أيضاً هو الانتقال من مرحلة الجمود إلى مرحلة الإبداع والتطوير والتجديد، والانتقال من مرحلة الانكفاء والعزلة إلى مرحلة الانفتاح والتفاعل مع العصر، والتحول من نقد الآخر إلى نقد الذات أيضاً، والتفكير في قضايا الواقع وعدم الاقتصار على قضايا الماضي... إلخ.

إلا أن ذلك لا يعني أن الفكر الإسلامي الجديد استطاع الإجابة على كل التساؤلات المعاصرة، وشواغل العقل الإسلامي، إذ لازالت الكثير من القضايا بحاجة إلى بلورة في

المفاهيم، والتجديد في الأفكار، والإبداع في الحلول خصوصاً وأننا نعيش في عصر يتميز بتحولات سريعة، وتغيرات شملت مختلف جوانب الحياة المعاصرة.

ويمكن الإشارة إلى أهم القضايا التي تحتاج إلى مزيد من إلقاء الأضواء عليها من قبل الفقهاء وأهل العلم والرأي والفكر في النقاط التالية:

١- التجديد في الفقه:

التحولات السريعة في عالم اليوم أفرزت الكثير من الإشكاليات الجديدة، والتساؤلات المعاصرة التي تبحث عن رأي شرعي، وتحتاج إلى تأصيل فقهي وأصولي.

وتبدو الحاجة إلى التجديد في (فقه المعاملات) من أوضح الأمور لكل من لديه اطلاع في الفقه؛ إذ يكفي أن نقرأ (فقه المعاملات) المكتوب في الرسائل العملية أو حتى في الكتب الاستدلالية ونقارنه بالمعاملات المعاصرة لنكتشف المسافة الشاسعة بين ما هو مدون في الفقه وما يتعامل به الناس من معاملات... وعلى ذلك فقس بقية الأمثلة.

ومن هنا؛ تبدو الحاجة إلى التجديد في الفقه أكثر وضوحاً من أي وقت مضى؛ وذلك لضخامة التساؤلات المثارة حول

استجابة الفقه لقضايا الحاضر ومشكلاته وهمومه؛ وهو ما يدفع إلى القول بأهمية التجديد في الاجتهاد والذي يجب أن يشمل مناهج الاجتهاد ومجالاته وحقوله إذا ما أريد لحركة الاجتهاد أن تنمو وتتطور وتستجيب لمتطلبات وتساؤلات العصر.

٢- التجديد في الثقافة:

يتميز هذا العصر بكثرة الطروحات والنظريات الثقافية، وكلها تهدف إلى التأثير في الناس، وكسب أكبر قطاع ممكن من الشرائح الاجتماعية، والأفكار الحية هي الأقوى على التأثير في سلوكيات وأخلاقيات الناس. والفكر الإسلامي يحمل في ذاته مقومات البقاء والاستمرار، ولكن يحتاج إلى التجديد والتطوير، وصياغة خطاب ثقافي قادر على مواكبة لغة العصر، والتأثير في الأجيال الجديدة.

وفي ظل (العولمة الثقافية) التي يُراد تعميمها للعالم متجاوزة حدود الزمان والمكان بفعل ما تمتلكه من آليات فعالة، وإمكانات جبارة نحتاج إلى تجديد ثقافتنا، وإنتاج المزيد من الأفكار الجديدة القادرة على مواكبة مستجدات العصر، والإجابة على تساؤلاته وإشكالياته.

٣- مسألة حقوق الإنسان:

تعتبر مسألة (حقوق الإنسان) من القضايا الرئيسة التي

تحتاج إلى معالجات إسلامية، ليس لأنها غير مذكورة في تراثنا الإسلامي، بل لأنها بحاجة إلى تركيز وبلورة لمفاهيم حقوق الإنسان، وتسليط المزيد من الأضواء عليها، خصوصاً وأنه كثر الحديث مؤخراً عن هذه القضية في وسائل الإعلام المختلفة؛ وهذا ما يجب أن يدفع أهل الرأي والفكر إلى صياغة مشروع واضح المعالم حول تفاصيل حقوق الإنسان، وقبول الآخر، والاعتراف بالتعدد المذهبي والديني... إلخ.

وأظن أننا بحاجة إلى صياغة (فقه حقوق الإنسان) كي يمكن الارتكاز إليه كمرجعية شرعية في هذا المجال المهم.

جماع القول: أتصور أن أي تجديد أو تطوير في الفكر الإسلامي بحاجة إلى مراجعة شاملة، ونقد جريء لكل ما يحتاج إلى ذلك، وأن الكثير من المسكوت عنه في الفكر الإسلامي هو نتيجة للخوف وعدم الجرأة في نقد ما يحتاج إلى النقد من مقولات الماضي، أو مراجعة المنتج الفكري بشكل صريح وشجاع.

وعندما نتحدث عن ضرورة المراجعة والنقد لإنتاج التجديد والتطوير في الفكر و الثقافة فهذا لا يعني المساس بالثوابت غير القابلة لأي تجديد أو تطوير كقضايا العقيدة أو مسائل العبادة، وإنما نشير إلى ما يقبل التجديد من المفاهيم

والأفكار والآراء الاجتهادية التي تقبل ذلك؛ وأول خطوة لذلك هو ممارسة النقد والمراجعة والتقويم بصورة علمية و منهجية، وبنفس آليات البحث العلمي، ولأهل الاختصاص أو من لديه القدرة على ذلك من أهل العلم والفكر.

الإسلام ومنهج اللاعنف

يربي الإسلام أتباعه على اتباع منهج التسامح والرحمة، والتحلي بالأخلاقيات والآداب الحسنة، واحترام حقوق الآخر المعنوية والمادية. وقد كان لهذا المنهج أثره الكبير في إقناع الكثير من الكفار والمشركين في اعتناق دين الإسلام؛ ومن ثم تحول هؤلاء إلى مدافعين عن قيم الإسلام ومبادئه باعتباره الدين الحق والخاتم.

والقارئ المتأمل لآيات القرآن الكريم يجد الكثير من الآيات الشريفة التي تدعو للتسامح والصفح واللين والعفو والسلم واحترام حقوق الآخر حتى وإن كان كافراً.

فمن آيات العفو قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[1].

(١) سورة الأعراف: الآية ١٩٩.

ومن آيات السلم قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1].

ومن آيات الصفح قوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[2].

ومن الآيات التي تدعو لاحترام عقائد الآخرين حتى ولو كانت فاسدة غير صحيحة قوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾[3] إذ إن الأمور الاعتقادية تحتاج إلى قناعة قلبية، ولا أثر للإكراه أو الضغط على القلب، علماً بأن احترام عقائد المخالف في الدين لا يعني القبول بعقيدته، وإنما المقصود حفظ حقوق أهل الذمة في بلاد المسلمين التي تكفل الإسلام بحفظها لهم.

وفي آية أخرى يدعو القرآن الكريم المؤمنين إلى عدم سب الكافرين حتى لا يتجرؤوا على سب الله عز وجل، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾[4].

هذه الآيات الشريفة كلها تدعو إلى العفو والصفح والتسامح والجنوح إلى السلم والسلام، وبالمفهوم -حسب

(١) سورة الأنفال: الآية ٦١.
(٢) سورة الزخرف: الآية٨٩.
(٣) سورة البقرة: الآية٢٥٦.
(٤) سورة الأنعام: الآية ١٠٨.

مصطلح المناطقة- فإنها تدعو إلى اللاعنف سواء تجاه الذات أو الآخر المخالف ولو كان من خارج الدائرة الإسلامية.

لقد انتشر الإسلام بمنهج الأخلاق الراقية، وبمفردات التسامح والتراحم والمحبة واحترام الحقوق المعنوية والمادية حتى للمخالفين من الديانات الأخرى.

وفي سيرة النبي الأكرم ﷺ نجد الرحمة والرأفة واللين في التعامل حتى مع أعدائه؛ بل أنه ﷺ يرفض حتى الدعاء على المشركين، فقد ورد أنه قيل يا رسول الله: ادع على المشركين. فقال: «إني لم أبعث لعاناً، وإنما بعثت رحمة».

والمتعمق في سيرة النبي ﷺ يجد أنه لم يتوسل ولا مرة واحدة بوسيلة غير مشروعة، إذ أن صلاح الأهداف لا يبرر فساد الوسائل؛ إذ أن الغاية لا تبرر الوسيلة.

بل نجد في سيرة النبي ﷺ حتى في الغزوات التي خاضها ضد الكفار والمشركين كان يوصي أصحابه بضرورة الالتزام بأخلاقيات الحرب، وعدم جواز استخدام الوسائل والأساليب غير الأخلاقية من قبيل: التمثيل بالقتلى، وقتل الشيوخ والأطفال والنساء، بل ينهى حتى عن قطع الشجر إلا في حال الضرورة القصوى.

إن منهج الإسلام يقوم على نبذ العنف ضد الأنا فضلاً عن الآخر المخالف، ويدعو للحوار والجدال بالتي هي أحسن، والالتزام بأخلاقيات الإسلام في كل الأوقات والظروف.

وما تلجأ إليه اليوم بعض الحركات والتيارات السياسية من اتباع منهج العنف من أجل تحقيق أهدافها يتعارض بصورة قطعية مع مبادئ الإسلام وقيمه وأخلاقياته.

إذ ليس من الإسلام في شيء ممارسة أية أعمال إرهابية في بلاد المسلمين أو حتى في بلاد غير المسلمين، ولا يجوز القيام بأية أعمال يرفضها الشرع المقدس ضد الكفار أو غيرهم من قبيل: الاختطاف والاحتجاز والقتل والتمثيل بالقتلى تحت أية ذرائع أو حجج، فإن كل ذلك -بالإضافة لحرمته في الإسلام- يشوه صورة الإسلام في نظر الآخر، كما أنه يمس أمن المجتمع، ويؤثر على البنية الاقتصادية لبلاد المسلمين... وغير ذلك كثير.

إن على كل من يقوم بمثل هذه الأعمال الإرهابية أن يستفيد من تجارب الحركات الأخرى في البلاد الإسلامية وغيرها ممن اتخذت أساليب عنفية وإرهابية، إذ أنها إما فشلت في الوصول لأهدافها أو وصلت لطريق مسدود. كما أن الثمن الذي دفعته تلك التيارات كان باهضاً للغاية، ومع ذلك لم تحقق أهدافها كما

هـو واضح لكل مراقب للأحـداث التي وقعت وتقع في غير بلد من بلاد المسلمين.

وهنـا نختـم القـول بضـرورة التركيـز علـى تفنيـد البنيـة الفكريـة التي يرتكـز عليها دعـاة العنف، إذ أن هؤلاء يسـتندون فـي أعمالهـم الإجرامية إلى الفهـم الخاطئ والتفسـير الانتقائي لنصـوص الإسـلام، ولذلك لا بد مـن مضاعفة العمـل الفكري المؤصـل عقديـاً وفقهياً من أجل توضيح ونشـر منهج الإسـلام الأصيل القائم على التسامح والرحمة واحترام حقوق الآخرين، وضـرورة غرس هـذه المفردات الإسـلامية في نفـوس وعقول الأجيال المعاصرة.

الإرهاب أضراره وعلاجه

أَكَّدَ الإسـلام على أهمية ووجوب احترام حقوق الإنسان المعنويـه والماديـة، وعدم جـواز التعدي على حقـوق الآخرين أو سـلبها، ومـن أهم هذه الحقـوق: حق الحيـاة، حيث لا يجوز للإنسان أن يقتل نفسه أو يقتل غيره، بل إن الإسلام اعتبر أن قتل شـخص واحد هو بمثابة قتل كل الناس، يقول تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾[١].

ونعمـة الأمن هـي من النعـم التي يجـب الحفـاظ عليها، فبدونها يفقد الإنسان الشعور بالراحة النفسية، فيعيش قلقاً خائفاً مما يحيـط به من مخاطر ومصاعب، فالإنسـان يبحث دوماً عن تحقيق الأمان لنفسه وعائلته ومجتمعه.

(١) سورة المائدة: الآية ٣٢.

ويعد ممارسة الإرهاب والعنف من الوسائل الخطيرة التي تهدد حياة الأبرياء والناس، وتدمر الممتلكات والثروات، وتفقد المجتمع الشعور بالأمن والأمان.

وقد انتشر الإرهاب في كثير من المجتمعات نتيجة لتبني أفراد أو جماعات أسلوب العنف من أجل تحقيق أهدافها وغاياتها، مرتكزة في ذلك على فهم قشري لمفاهيم الإسلام، والانتقائية الخاطئة في الأخذ بالنصوص، وتصدي من ليس أهلاً للفتوى للإفتاء بممارسة العنف والإرهاب، والتساهل في قتل الإنسان، وتدمير الممتلكات مما أدى إلى تزايد الأعمال الإرهابية في كثير من بلدان العالم.

إن كل الأعمال الإرهابية التي تستهدف حياة الأبرياء، وتدمير الممتلكات، يجب أن تُدان وتستنكر، لأنها تمثل اعتداء على حق الحياة، وعدوان على حقوق الناس.

أضرار الإرهاب

للإرهاب أضرار كثيرة على الأفراد والمجتمعات الإنسانية... ويمكن أن نشير إلى أبرز هذه الأضرار في الحقائق التالية:

١- قتل الأبرياء:

من أهم أضرار الإرهاب هو قتل الأبرياء من الرجال

والنساء والأطفال، وسفك الدماء، وهو من أشد المحرمات في الإسلام، إذ هو عدوان على النفس البشرية التي حَرَّمَ الله قتلها إلا بالحق.

إن قتل الأبرياء لأسباب واهية، أو للاختلاف في الدين أو المذهب أو الفكر يعد جريمة نكراء لا يقبلها عقل أو منطق أو دين.

بل إن القرآن الكريم يعتبر أن قتل إنسان واحد هو بمثابة قتل الجنس البشري بأجمعه، كما أن إنقاذ أي إنسان من الموت، يعد بمثابة إنقاذ الإنسانية كلها من الفناء، حيث تقول الآية الكريمة: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾[1].

ويرد هنا سؤال وهو: كيف يكون قتل إنسان واحد مساوياً لقتل الناس جميعاً، وكيف يكون إنقاذ إنسان من الموت بمثابة إنقاذ الإنسانية جمعاء من الفناء؟

ولقد وردت أجوبة عديدة من قبل المفسرين على هذا السؤال... جاء في تفسير «التبيان» ستة أجوبة عليه، وفي «مجمع

(١) سورة المائدة: الآية ٣٢.

البيان» خمسة أجوبة، وفي «كنز العرفان» أربعة أجوبة، ولكن بعضاً من هذه الأجوبة يبتعد كثيراً عن معنى الآية.

إن هذه الآية الشريفة، تتحدث عن حقيقة اجتماعية تربوية، لأن من يقتل إنساناً بريئاً ويلطخ يده بدم بريء يكون -في الحقيقة- مستعداً للهجوم على أناس آخرين -يساوونه في الإنسانية والبراءة- وقتلهم وهو -في الحقيقة- إنسان قاتل، وضحيته إنسان آخر بريء. ومعلوم أنه لا فرق بين الأبرياء من الناس من هذه الزاوية.

كما أن أي إنسان يقوم -بدافع حب النوع الإنساني- بإنقاذ إنسان آخر من الموت، يكون مستعداً للقيام بعملية الإنقاذ للإنسانية بشأن أي إنسان آخر، فهذا الإنسان المنقذ يحب إنقاذ الناس الأبرياء، لذلك لا فرق بين إنسان بريء وآخر مثله.

ونظراً لكلمة «فكأنما» التي يستخدمها القرآن في هذا المجال، فإننا نستدل بأن موت وحياة إنسان واحد، مع إنه لا يساوي موت وحياة المجتمع، إلا أنه يكون شبيهاً بذلك، هذا أولاً.

وثانياً: إن المجتمع يشكل في الحقيقة عضوية واحدة، وأعضاؤه أشبه بأعضاء الجسد الواحد وأن أي ضرر يصيب أحد أعضائه يكون أثره واضحاً -بصورة أو بأخرى- في سائر الأعضاء، ولأن المجتمع البشري يتشكل من الأفراد، لذلك فإن

فقدان أي فرد منهم يعتبر خسارة للمجتمع الإنساني الكبير، لأن هذا الفقدان يترك أثراً بمقدار ما كان لصاحبه لدى وجوده من أثر في المجتمع، لذلك يشمل الضرر عبر هذا المعنى جميع أفراد المجتمع.

ومن جانب آخر فإن إحياء فرد من أفراد المجتمع، يكون لنفس السبب الذي ذكرناه بمثابة إحياء وإنقاذ جميع أفراد المجتمع، لأن لكل إنسان أثر بمقدار وجوده في بناء المجتمع الإنساني وفي مجال رفع احتياجاته، فيكون هذا الأثر قليلاً بالنسبة للبعض وكثيراً بالنسبة للبعض الآخر.

وحين نقرأ في الروايات أن جزاء وعقاب قاتل النفس المحرمة، يكون كجزاء قاتل جميع أفراد البشر، إنما ذلك إشارة لهذا المعنى الذي ذكرناه، ولا يعني أن الناس متساوون مع بعضهم في كل الجهات؛ ولذلك نقرأ في تفسير هذه الروايات أيضاً أن عقاب القاتل يتناسب مع عدد الأفراد الذين قتلهم تناسباً طردياً قلة وزيادة.

وتبين هذه الآية بجلاء أهمية حياة وموت الإنسان في نظر القرآن الكريم، وتتجلى عظمة هذه الآية أكثر حين نعلم أنها نزلت في محيط لم يكن يعير أي أهمية لدماء أفراد الإنسانية[1].

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٣، ص ٦٠٧.

فالآيــة الشــريفة تــدل بوضــوح على أهميــة احتــرام النفس الإنســانية، وعدم جواز الاعتداء على الإنسان -أي إنسان- بغض النظــر عــن دينه أو عرقــه أو لغته، فالآية أشــارت بوضوح إلى قتل النفس ﴿مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا﴾ ولم تقل من قتل نفســاً مسلمة، وفي هذا دلالة على العموم والإطلاق إلى وجوب احترام النفس الإنسانية، وأن قتل أي إنسان -بغير حق- هو بمثابة قتل الناس جميعاً.

٢- تشويه صورة الإسلام:

إن ممارســة الإرهــاب مــن قبــل أفــراد ينتمــون أو يدعون الانتماء للإســلام قد شَــوَّه صورة الإســلام في نظر المجتمعات الأخــرى، وأعطى هــؤلاء صــورة خاطئة عن الدين الإســلامي، والمفاهيم الإسلامية، والشريعة السمحاء.

إن القيــام بأي عمل إرهابي ضد الأبريــاء من الناس يعطي انطباعاً عميقاً وخاطئاً بأن الإســلام يدعو للعنف والكراهية، في حين أن الإسلام دين السلام والمحبة والتسامح.

ولكــن الملاييــن من الكتــب التــي تتحدث عن التســامح واحترام الآخر في الإسلام لا يمكن أن يساوي تأثيرها في الرأي العام أي عمل إرهابي في خَلق صورة نمطية خاطئة عن الإسلام وقيمه ومبادئه ومثله السامية والنبيلة.

الإسـلام الـذي جاء رحمة للنـاس كما قـال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾[1] شوهت صورته وحقيقته ومفاهيمه بفعل الأعمال الإرهابية الوحشية.

٣- الإضرار بمصالح المسلمين:

الأعمال الإرهابية تنعكس آثارها على الجميع، ولا تقتصر علـى من يقـوم بها فقـط، وقـد كان للممارسـات الإرهابية التي وقعت في بلاد الغرب أو في بلاد المسلمين تأثيرات سلبية كبيرة على مصالح المسلمين، والإضرار بمكانة المسلمين في العالم، هذا فضلاً عن الخسائر في الأرواح والممتلكات.

وهذه الأضرار لا تقتصر على الخسـائر المادية؛ بل تشمل الخسائر المعنوية أيضاً، وهذه الخسائر أكثر ضرراً على المستوى البعيد من الخسائر المادية.

٤- نشر ثقافة الكراهية بين الشعوب:

ساهمت الأعمال الإرهابية في نشر ثقافة الكراهية والحقد بين الأمم والشعوب، فعمليات القتل والاختطاف والتدمير بحق الأبرياء يخلق شعوراً بالكراهية بين الناس ضد الثقافة الإسلامية، بل وضد الدين الإسلامي نفسه.

(١) سورة الأنبياء، الآية ١٠٧.

والإسلام الذي يدعو للتعارف بين الناس كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(١) والتعارف لا يمكن أن يتحقق إلا في أجواء المحبة والمودة والتسامح بين الناس.

أما الأعمال الإرهابية فتؤدي إلى إيجاد الصراع بين الشعوب والأمم، والتنافر والقطيعة بين البشر، وهو خلاف ما يدعو إليه القرآن الكريم.

كيف عالج الإسلام الإرهاب؟

في الإسلام منهج متكامل يمنع ممارسة الإرهاب والعنف، ويمكن أن نشير إلى بعض النقاط في هذا المنهج الإسلامي فيما يلي:

١- تحريم القتل والعدوان:

حَرَّمَ الإسلام قتل الأبرياء من الناس سواء كانوا من المسلمين أو من غيرهم، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾(٢)، ويقول تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.
(٢) سورة الإسراء: الآية ٣٣.

عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ ﴾[1].

فقتل النفس بغير حق من أشد المحرمات في الإسلام، وفاعل ذلك يستحق العذاب العظيم في الآخرة، والقصاص منه في الدنيا.

وفي سيرة النبي الأعظم محمد بن عبدالله ﷺ أكبر الدروس على وجوب عدم التعدي على الآخرين، وعدم التساهل في قتل الناس حتى الأعداء غير المحاربين، وقد استنكر النبي ﷺ على أسامة بن زيد تساهله في قتل إنسان تشهد بالشهادتين، تقول الرواية عن أسامة بن زيد قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقات، فصبحنا القوم فهزمناهم ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم، فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، فكف الأنصاري وطعنته برمحي حتى قتلته، فلما قدمنا بلغ النبي ﷺ فقال: «يا أسامة أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله؟» قلت: إنما كان متعوذاً، فقال: «أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟» فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم.

وفي رواية أخرى قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية

(١) سورة المائدة: الآية ٣٢.

فصبحنا الحرقات من جهينة فأدركت رجلاً فقال: لا إله إلا الله، فطعنته فوقع في نفسي من ذلك فذكرته للنبي ﷺ فقال: «أقال: لا إلـه إلا الله، وقتلته؟» قلت: يا رسـول الله إنما قالها خوفاً من السلاح؟ قال: «أفلا شققت قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟» فما زال يكررها حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ[1].

في هذه الرواية نجد أن النبي ﷺ يستنكر على أسامة بن زيد استسـهال قتل الإنسـان، وضرورة حمل عمل الإنسان على الظاهر، وعدم جواز ترتب أي أثر على قراءة النوايا «أفلا شققت قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟!» بالرغم من احتمال أن هذا اليهودي إنما تشهد خوفاً من القتل بالفعل، ولكن النبي ﷺ أراد أن يعلم المسـلمين درسـاً في التسـامح، وأهمية الأخـذ بالظاهر، وعدم جواز قتل الإنسان لمجرد الاحتمال، أو التشكيك في النوايا.

إن مـن أهـم الدوافـع التـي تدفـع بعـض الجماعـات إلى التطرف في وقتنا المعاصر هو التشكيك في نوايا الناس، وادعاء معرفـة بواطـن الآخريـن، والزعـم بامتـلاك الحقيقـة المطلقة، واسـتباحة دماء وأموال وأعراض الآخـر المخالف مما أدى إلى نمو ظاهرة التطرف والإرهاب.

ومـن المهـم لـكل مسـلم أن يتأمل في هـذه القصـة ملياً،

---

(١) بحار الأنوار، ج٢١، ص٦٤.

ولنتعلم منها درساً في أن كل من تشهد بالشهادتين فقد عصم ماله ودمه وعرضه.

وعن عبدالله بن مسعود قال: إن امرأة وجدت في بعض مغازي النبي ﷺ مقتولة، فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان.

وممن قتل في حنين امرأة من هوازن قتلها خالد بن الوليد فساء رسول الله ﷺ قتلها إذ مر بها والناس متقصفون (مجتمعون) عليها.، فقال: ما هذا؟ فقالوا: امرأة قتلها خالد بن الوليد، فقال رسول الله ﷺ لبعض من معه: أدرك خالداً فقل له: إن رسول الله ينهاك أن تقتل وليداً أو امرأة أو عسيفاً -أي أجيراً-[1].

في هذه الرواية يستنكر النبي ﷺ قتل النساء والأطفال والعبيد، لأن رسالة الإسلام هو نشر الرحمة بين الناس، وليس الانتقام أو الثأر حتى من الأعداء ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[2].

وروي أنه لما كسرت رباعيته ﷺ وشج وجهه يوم أحد

(١) السيرة النبوية، ابن هشام أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري، المكتبة العصرية، بيروت - لبنان، طبع عام ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، ج٤، ص٨٨.
(٢) سورة الأنبياء، آية ١٠٧.

شق ذلك على أصحابه شقاً شديداً، وقالوا: لو دعوت عليهم؟

فقال: «إني لم أبعث لعاناً ولكني بعثت داعياً ورحمة، اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون»[1].

إن النبي ﷺ يرفض استخدام حتى وسيلة الدعاء على الكفار والمشركين، لأن النبي ﷺ كان هدفه هدايتهم إلى الحق وليس القضاء عليهم، فالذين أسلموا كانوا قبل ذلك من الكفار.

وهكذا نرى في هذه القصص والروايات من سيرة النبي صفحات مضيئة من السيرة المباركة لرسول الله ﷺ، وكيف أنه كان يؤكد على ضرورة استخدام الوسائل المشروعة للوصول للأهداف السامية والنبيلة. وكان يدعو أصحابه إلى عدم استخدام أية وسائل غير شريفة وإن كان لأهداف شريفة، فصلاح الأهداف لا يبرر فساد الوسائل، بل ينبغي أن تكون الوسائل والأهداف معاً شريفة ونبيلة وربانية.

٢- تحريم الانتحار:

كما حرم الإسلام قتل الآخرين، فقد حرم على الإنسان أن يقتل نفسه أيضاً، فلا يجوز للإنسان أن ينتحر، أو يقوم بأي عمل

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي أبو الفضل عياض اليحعبي، دار الفكر، بيروت - لبنان، طبع عام ١٤٠٩هـ، ج١، ص١٠٥.

يؤدي بنفسه للقتل، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾[1]، وقال الإمام الصادق عليه السلام: «من قتل نفسه متعمداً فهو في نار جهنم خالداً فيها»[2].

كما لا يجوز للإنسان أن يبتر عضواً من أعضائه كقطع يده أو أذنه أو جذع أنفه أو فقء عينه، أو ما شابه ذلك، أو أن يذهب قوة من قواه كقوة عينه فلا يبصر أو أذنه فلا يسمع، أو المرأة تذهب قوة رحمها فلا تنجب[3].

إذ إن هذه الأعمال تعد من إرهاب الإنسان ضد نفسه وحياته، وهو تعدي على حقه في الحياة، فلا يجوز له أن يقضي على نفسه بالانتحار أو التعدي على أحد أعضائه وقواه الرئيسة.

٣- وضع عقوبات صارمة:

من أجل الحفاظ على الأمن والأمان، وضمان حقوق

---

(١) سورة النساء: الآيتان ٢٩ - ٣٠.

(٢) بحار الأنوار، ج١٠١، ص٣٧٦، رقم٣٢.

(٣) السلم والسلام، السيد الشيرازي، دار العلوم، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، ص ١٣٤.

الناس من الاعتداء والتجاوز، فقد وضع الإسلام عقوبات صارمة ضد كل من يعتدي على الناس بالقتل أو العدوان أو السرقة أو الغصب أو النصب وماأشبه ذلك.

فقد شرع الإسلام الحدود والقصاص ضد كل من تسول له نفسه الاعتداء على الناس، وذلك لمنع القيام بأعمال إرهابية أو عنيفة ضد الآخرين، قال الله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1].

والهدف من الحدود والقصاص والديات هو حفظ الأمن الاجتماعي، وحقن الدماء، وردع الأشرار من العدوان على حقوق الناس، يقول الإمام الباقر عليه السلام: «القصاص والحدود حقن للدماء»[2]، وبهذا القانون الإسلامي يحافظ الإسلام على الأمن في المجتمع، ويمنع من ارتكاب الجرائم أو يقللها على أقل تقدير.

٤- الدعوة لتطبيق العدل:

يأمر الإسلام بتطبيق العدل، يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ

(١) سورة البقرة: الآية ١٧٩.
(٢) بحار الأنوار، ج٧٥، ص ١٨٣، رقم ٨.

﴿وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1] فالعدل عندما يسود المجتمع، وعندما تطبق العدالة في السياسة الدولية فإن ذلك يؤدي إلى القضاء على الإرهاب والعنف.

والإسلام يأمر بالعدل في كل شيء، في الاقتصاد والاجتماع والسياسة، وحتى في داخل العائلة الصغيرة، لأن العدل هو الذي يخلق الشعور بالاطمئنان، ويساهم في نشر المحبة بين الناس، ومن ثم عندما يسود العدل كل مناحي الحياة تنعدم البيئة المولدة للأعمال الإرهابية والعنيفة، أما عندما يسود الظلم كل جوانب الحياة تتوفر الأرضية الملائمة التي تشجع على نمو الأعمال الإرهابية في المجتمعات البشرية.

والإسلام عندما يدعو للعدل في الحكم والسياسة والاقتصاد والاجتماع والفكر، وكل أبعاد الحياة؛ فلأن العدل قيمة من القيم الثابتة، وهو الذي يشيع السعادة والأمن في المجتمعات الإنسانية، ويقضي على نمو أي فكر أو عمل إرهابي.

٥- الدعوة للانفتاح و التسامح:

الإسلام يدعو للانفتاح على الأفكار المختلفة واختيار أحسنها، يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ

(١) سور النحل: الآية ٩٠.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[1]، وهـذه الآيـة المباركة تشير إلى حرية الفكر والتفكير في الإسلام، حيث يدعو القرآن الكريم إلى استماع كل الآراء والأفكار ثم اختيار أفضلها وأحسنها عن وعي وتأمل.

يقـول المرجع الديني الشـيخ ناصر مكارم الشـيرازي في تفسـيره لهاتيـن الآيتين الشـريفتين: الآيتـان المذكورتـان اللتان وردتا بمثابة شـعار إسـلامي، بينتـا حرية الفكر عند المسـلمين، وحرية الاختيار في مختلف الأمور.

في البداية تقول (بشـر عبـاد) ثم تعرج على تعريف أولئك العباد المقربين بأنهم أولئك الذين لا يسـتمعون لقول هذا وذاك مـا لـم يعرفـوا خصائـص وميـزات المتكلـم، والذيـن ينتخبون أفضـل الكلام من خلال قوة العقـل والإدراك، إذ لا تعصب ولا لجاجـة في أعمالهم، ولا تحديد وجمود في فكرهم وتفكيرهم، إنهـم يبحثون عن الحقيقة وهم متعطشـون لهـا، فأينما وجدوها اسـتقبلوها بصدور رحبة، ليشربوا من نبعها الصافي من دون أي جرح حتى يرتووا.

إنهـم ليسـوا طالبيـن للحـق ومتعطشـين لأحسـن الكلام وحسـب، بل هم يختارون الأجود والأحسـن من بيـن (الجيد)

(١) سورة الزمر: الآية ١٨.

و (الأجود) و (الأحسن) وخلاصة الأمر فإنهم يطمحون لنيل الأفضل والأرفع، وهذه هي علامات المسلم الحقيقي المؤمن الساعي وراء الحق.

في حين أن الكثير من المذاهب الوضعية تنصح أتباعها بعدم مطالعة ومناقشة مواضيع وآراء بقية المذاهب، إذ أنهم يخافون من أن تكون حجة الآخرين أقوى من حجتهم الضعيفة، وهذا ما يسبب فقدان الأتباع الذين قد يلتحق بعضهم بالمذاهب الأخرى الأفضل.

إلا أن الإسلام ينتهج سياسة الأبواب المفتوحة في هذا المجال، إذ يعتبر المحققين هم عباد الله الحقيقيين، الذين لا يرهبون سماع آراء الآخرين، ولا يستسلمون لشيء من دون أي قيد أو شرط، ولا يتقبلون كل وسواس.

الإسلام الحنيف يبشر الذين يستمعون القول ويتبعون أحسنه، الذين لا يكتفون بترجيح الجيد على السيء، وإنما ينتخبون الأحسن ثم الأحسن من كل قول ورأي. ويوبخ بشدة الجهلة الذين يضعون أصابعهم في آذانهم ويستغشون ثيابهم كلما سمعوا صوت الحق، كما ورد في قول نوح عليه السلام عندما شكا قومه للبارئ عز وجل: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ

وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ﴾[1].

فمن الطبيعي أن المبدأ ذا المنطق والدليل القوي، لا يرهب أقوال الآخرين، ولا يتخوف من طرح آراء تلك المذاهب، لأنه أقوى منها وهي الضعيفة التي ينبغي أن تخافه.

هذه الآية وضعت -في نفس الوقت- أولئك الذين يمتلكون عيوناً وآذاناً عديمة الشعور والإحساس، والذين يتبعون أي قول يقال لهم من دون أي تفكير في مدى صدقه، وحتى أنهم لا يحققون ولا يبحثون فيه بقدر ما تبحث الأغنام عن الغذاء في المراعي، وضعتهم خارج صف (أولو الألباب) والذين (هداهم الله). فهاتان الصفتان تختصان بالذين لم يبتلوا بالاستسلام المفرط من دون أي قيد أو شرط، والذين لم يفرطوا في تعصبهم الجاهلي والأعمى[2].

فالإسلام يشجع الإنسان على البحث عن الحقيقة والصواب، وهذا يتطلب الانفتاح على الأفكار الأخرى، إذ أن قوة المنطق في الفكر الإسلامي الأصيل تجعله في موقف لا يخشى فيه من الاطلاع على الأفكار والثقافات المتنوعة.

ومن جهة أخرى يحث الإسلام على التسامح مع الآخر

(١) سورة نوح: الآية٧.

(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١٥، ص ٤٧.

الديني فضلاً عن الآخر في نفس الدائرة الإسلامية، إذ أن الإسلام دين الرحمة والمحبة، ويربي أتباعه على ذلك، بالتسامح تجاه الآخرين، بل والإحسان إليهم، يقول تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(1).

إن الانفتاح على الفكر الآخر، والتسامح تجاه الأفكار والأديان الأخرى هو الذي يقضي على حالات التشنج والانفعال، ويقلل من وجود أرضية لنمو فكر الإرهاب والكراهية والحقد في المجتمع.

أما عندما يفرض رأياً واحداً على الجميع، ويسمح لفكر واحد للتعبير عن نفسه، وتمنع الأفكار الأخرى من التداول؛ فهذا يؤدي لنمو التطرف والكراهية تجاه الآخر حتى في ضمن الدائرة الواحدة فضلاً عن الآخر في الدوائر المغايرة.

والإسلام عندما يشجع على الانفتاح والحوار، ويدعو لاحترام الآخر، وضمان حقوق الناس -كل الناس-، ويحرم القتل والعدوان؛ فإنما يهدف من وراء ذلك لتشجيع التعارف بين الناس، وتنمية الأمن الاجتماعي، والحفاظ على التماسك الاجتماعي، وزرع المحبة والمودة بين كافة البشر،وبذلك ينمو

(1) سورة الممتحنة: الآية8.

فكر الاعتدال، وتزدهر قيم التسامح والحوار والتعاون، ويتقلص فكر الانغلاق الذي يؤدي للتطرف والإرهاب.

أزمة الرسوم المسيئة للنبي ﷺ
رؤية في الجذور وصنع البدائل

واجه الرسول الأعظم محمد بن عبدالله ﷺ الكثير من المشاكل والعقبات والتحديات في سبيل نشر الدعوة، وتبليغ الرسالة، ومن أبرزها: توجيه سيل من الإهانة والاستهزاء المادي والمعنوي بشخصيته ﷺ، حيث كان الكفار يرمون على جسده الشريف الأوساخ وهو قائم يصلي لله، أو ممارسة الاستهزاء اللفظي به ﷺ، بهدف تصغير شخصية الرسول عند الناس كي ينفروا منه، ولا يلتفوا حول شخصيته العظيمة.

وقد مارس الرسول الكريم ﷺ الدعوة بصورة سرية لمدة ثلاث سنوات، حتى نزلت هذه الآيات ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴾[1] تدعو الرسول إلى إعلان

(١) سورة الحجر: الآيتان ٩٤و ٩٥.

الدعوة والجهر بها، مع عدم الاهتمام بردود المشركين؛ لأن الله تعالى تكفل بحماية النبي من استهزائهم ومكرهم وكيدهم.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾[1] أي كفيناك شر المستهزئين واستهزاءهم بأن أهلكناهم وكانوا خمسة نفر من قريش: العاص بن وائل والوليد بن المغيرة وأبو زمعة وهو الأسود بن المطلب والأسود بن عبد يغوث والحرث بن قيس عن ابن عباس وسعيد بن جبير. وقيل كانوا ستة رهط عن محمد بن ثور وسادسهم الحارث بن الطلاطلة وأمه عيطلة قالوا وأتى جبرائيل النبي ﷺ والمستهزئون يطوفون بالبيت فقام جبرائيل ورسول الله إلى جنبه فمر به الوليد بن المغيرة المخزومي فأومى بيده إلى ساقه فمر الوليد على قين لخزاعة وهو يجر ثيابه فتعلقت بثوبه شوكة فمنعه الكبر أن يخفض رأسه فينزعها وجعلت تضرب ساقه فخدشته فلم يزل مريضاً حتى مات، ومر به العاص بن وائل السهمي فأشار جبرائيل إلى رجله فوطئ العاص على شوكة فدخلت في أخمص رجله فقال لدغت فلم يزل يحكها حتى مات، ومر به الأسود بن المطلب بن عبد المناف فأشار إلى عينه فعمي وقيل رماه بورقة خضراء فعمي وجعل يضرب رأسه على الجدار حتى هلك، ومر به الأسود بن عبد يغوث فأشار إلى بطنه فاستسقى فمات وقيل أصابه السموم فصار أسود فأتى أهله فلم يعرفوه فمات

(١) سورة الحجر: الآية ٩٥.

وهـو يقول قتلني رب محمد، ومر به الحارث بن الطلاطلة فأومئ إلى رأسه فامتخط قيحاً فمات وقيل إن الحرث بن قيس أكل حوتاً مالحاً فأصابه العطش فما زال يشرب حتى انقد بطنه فمات[1].

وإن مجيء الفعل بصيغة الماضي في الآية الشريفة ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾[2] مع أن المراد المستقبل يشير إلى حتمية الحماية الربانية، أيّ: سندفع عنك شر المستهزئين، حتماً مقضياً.

وقد ذكر المفسرون رواية تتحدث عن ست جماعات (أو أقل) كلاً منهم يمارس نوعاً من الاستهزاء تجاه النبي ﷺ.

فكلما صدع النبي ﷺ بالدعوة قاموا بالاستهزاء تفريقاً للناس من حوله ﷺ إلا أن الله تعالى قد ابتلى كلاً منهم بنوع من البلاء، حتى شغلهم عن النبي ﷺ[3].

وعبر التاريخ هناك من أعداء الدين من يحاول التقليل من شخصية النبي العظيم محمد بن عبدالله ﷺ من خلال الاستهزاء أو السخرية أو الاستهانة بشخصية نبينا ﷺ، إلا أن كل تلك المحاولات

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن، الشيخ الطبرسي، دار المعرفة، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ج ٦، ص ٥٣٣.
(٢) سورة الحجر: الآية ٩٥.
(٣) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، مؤسسة البعثة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م، ج٨، ص ١٠٧.

باءت بالفشل الذريع في تحقيق أهدافها وغاياتها الخبيثة.

وما قامت به صحيفة « يولاندز بوستن » الدنماركية بتاريخ ٣٠ سبتمبر (أيلول) ٢٠٠٥م، وما تلتها من صحف غربية أخرى من نشر اثني عشر رسماً كاريكاتيراً مسيئاً للنبي محمد ﷺ، هو امتداد لما حدث في عهده ﷺ، وبعد مماته للتأثير على أتباعه ومحبيه، والتقليل من شخصيته العظيمة، كما أنه يعبر عن استخفاف الغرب بالقيم الدينية، والاستهانة بالمعتقدات الإسلامية.

جذور الأزمة

ليس من المنطقي أن نتعامل مع هذه الظاهرة الجديدة في الصحف الغربية بردود أفعال مؤقتة تنتهي بانتهاء الحدث، وإنما المطلوب التعمق في فهم أبعاد هذه الظاهرة السيئة، ومحاولة معرفة أسبابها وجذورها الرئيسة كي يمكن التعامل معها بصورة صحيحة، وتجاوز آثارها وتداعياتها السلبية.

وتتلخص أهم جذور هذه الظاهرة في النقاط التالية:

١- تقصير المسلمين في التعريف بالإسلام:

يوجد تقصير واضح لدى المسلمين في التعريف بالإسلام الأصيل، فلم نعمل من أجل تعريف الشعوب والأمم غير المسلمة

بالإسلام، ولم نوضح لهم قيم وأخلاق ومثل الإسلام السمحاء.

وبالرغم من الإمكانات الضخمة التي يملكها مسلمو اليوم إلا أنه -وللأسف الشديد- لم يستثمروا تلك الإمكانات والقدرات الهائلة في التعريف بالإسلام، مما جعل الشعوب والأمم الغربية وغيرها لا تعرف شيئاً عن قيم الإسلام وثقافته وفكره.

٢- عرض الإسلام بصورة خاطئة:

من المهم للغاية أن نتقن عرض الإسلام في هذا العصر بما يتلاءم ولغته، فالإسلام بما يدعو إليه من قيم التسامح والتحاور والتراحم، واحترام حقوق الإنسان، ودعوته للتحلي بالقيم الأخلاقية والروحية، كفيل بإقناع الآخرين باعتناقه، ولكن بشرط أن نتقن عرضه للآخرين بصورة منطقية.

ومما يؤسف له حقاً هو عدم أهلية بعض الدعاة والمبلغين للتبشير بالإسلام، حيث يتم عرض الإسلام بصورة خاطئة مما ينفر الآخرين منه؛ بل ويرسم انطباعاً خاطئاً عن الإسلام وثقافته

وفي عالم اليوم -أكثر من أي يوم مضى- يأخذ أسلوب العرض للأفكار موقعاً مهماً في الإقناع والتأثير، فحتى الأفكار الخاطئة إذا ما تم عرضها بأسلوب رائع قد تقنع الطرف الآخر، في حين أن الأفكار الصحيحة تكون منفرة إذا ما تم عرضها بصورة غير ملائمة.

ولاشك في أن بعض الدعاة في الغرب قد مارس الدعوة إلى الإسلام بصورة خاطئة وغير مناسبة للغة الغربيين مما أدى إلى نفور شرائح اجتماعية كبيرة من الإسلام، وأصبح يُنْظَر إلى الإسلام كإيديولوجية غير متلائمة مع لغة العصر!

٣- ممارسة العنف:

ساهمت بعض الجماعات التي ترفع شعار العنف من أجل التغيير أو تحقيق أهداف سياسية في رسم صورة خاطئة عن الإسلام وثقافته.

فما يحدث اليوم في العراق من اختطاف الأجانب وذبحهم بطريقة أكثر وحشية حتى من ذبح الحيوانات قد أعطى صورة مغلوطة ومشوشة عن ثقافة الإسلام وقيمه.

كما أن ما قامت به بعض الجماعات والتيارات التي تؤمن بوسيلة العنف في بلاد الغرب -كما في بلاد المسلمين- قد أدى إلى الإساءة للإسلام، وَصُوِر الإسلام في بلاد الغرب على أنه دين يدعو إلى العنف والقتل والدمار!!

وتشير بعض الرسوم المسيئة للنبي ﷺ في الصحف الغربية إلى هذه الصورة النمطية عن الإسلام، وعن شخصية الرسول؛ حيث تصور الرسوم الرسول الكريم في أشكال

مختلفة، وترمز بعضها إلى أنه ﷺ كان يمارس الإرهاب أو أنه سبب لنمو الإرهاب!! وهذه الصورة النمطية إنما تجذرت في أذهان الغربيين نتيجة للممارسات الإرهابية أو الأساليب العنيفة التي تؤمن بها بعض الجماعات المتطرفة.

٤- الاختلاف الجوهري بين حضارتين:

كشفت ظاهرة الرسوم المسيئة للنبي الأعظم ﷺ عن اختلاف جوهري بين حضارتين مختلفتين، ففي حين تركز الحضارة الغربية على كل ما هو مادي وتتجاهل كل ما هو روحي، فإن الحضارة الإسلامية توازن بين المادة والروح، وفي الوقت الذي تسمح فيه الحضارة الغربية بالحرية إلى أبعد الحدود بما فيها الحرية في الحرام كالزواج المثلي، والخروج في الشوارع عراة، وممارسة الجنس أمام الناس، فإن الحضارة الإسلامية تعتبر ذلك خروجاً من الدين، وممارسات محرمة.

ومع ذلك فإن الغرب يمارس معايير مزدوجة في الحرية، ففي الوقت الذي يسمح فيه بالاستهزاء من النبي الأكرم ﷺ يمنع على أي غربي أو غيره التشكيك في صحة (الهولوكست). كما أن الحرية لا تعني الاستهزاء بمعتقدات الآخرين، أو السخرية من المقدسات الدينية، ولا يمكن أن يكون ذلك من الحرية المسؤولة، وإلا تحولت إلى فوضى.

وما قامت به الصحيفة الدنماركية وما تبعتها من الصحف الغربية الأخرى يشير إلى الاستخفاف بعقائد الآخرين، وانتهاك مقدسات المسلمين، وهو الأمر الذي يدل على الاستغراق في العنصرية والكراهية للشعوب المسلمة، كما أنه ناتج من الانفصام الغربي بين الدين والدنيا الحادث من الصراع الذي حدث بين الكنيسة والعلم.

أما الحرية التي يدعو إليها الإسلام فهي التي تقوم على التعبير المسؤول، والتي لا تتجاوز حقوق الآخرين، فحرية الأنا تنتهي عندما تبدأ حرية الآخر، كما أن الحرية لا تكون إلا في ما يقع في دائرة المباح.

صنع البدائل

وبعد أن استعرضنا جذور الأزمة بين الغرب والمسلمين، والتي فجرتها قضية الرسوم المسيئة للنبي الكريم ﷺ كأحد المظاهر البارزة لهذه الأزمة التي تزداد تعقيداً بمرور الزمن يبرز السؤال التالي: كيف نعالج هذه الأزمة بين الغرب والمسلمين؟! وما هي البدائل التي تساعدنا على تجاوزها؟

للإجابة على هذا السؤال نشير إلى الحقائق التالية:

١- العمل على التعريف بالإسلام:

نشر الدعوة الإسلامية، وتعريف الأمم والشعوب غير المسلمة بالإسلام من مسؤولية كل قادر على القيام بدور ما في

التعريف بالإسلام، ونشر الثقافة الإسلامية، والمعرفة الدينية بين الشعوب المختلفة.

ولعلَّ من أهم أسباب الأزمة ين الغرب والمسلمين هو جهل الغربيين بالإسلام، فلم يعد المسلمون يعملون من أجل التبشير بدينهم مما أدى إلى فهم الإسلام لدى الشعوب غير المسلمة بصورة خاطئة.

ومع توافر الوسائل الحديثة في نشر الأفكار والمعتقدات بين الأمم والمجتمعات أصبح الأمر من السهولة بمكان كبير، فلو استفاد المسلمون من القنوات الفضائية، وشبكة الإنترنت العالمية وغيرها، بطريقة علمية وعملية لكانوا قد ساهموا بصورة كبيرة في نشر الإسلام كما هو في المجتمعات الأخرى.

لكن مما يؤسف له أن الخطاب الإسلامي يخاطب المسلمين أنفسهم، ولا يوجد خطاب إسلامي مؤثر وموجه للمجتمعات غير المسلمة إلا بصورة نادرة وبأسلوب غير ملائم مع ما هو مطلوب في مكونات الخطاب المعاصر.

وما قامت به الصحف الغربية من نشر رسوم كاريكاتورية مسيئة للنبي الكريم ﷺ يجب أن يدفعنا جميعاً للتعريف بالإسلام، وبشخصية الرسول الأكرم ﷺ، للشعوب الأوروبية وغيرها. كما أن على الواعين أن يعملوا بكل جد واجتهاد من أجل استنهاض الأمة

من غفوتها، ودفعها نحو العمل المنظم من أجل دينها، والدفاع عن نبيها، نبي الرحمة والإنسانية محمد بن عبدالله ﷺ.

٢- عرض الإسلام بصورة علمية:

الإسلام يحمل مميزات يفتقدها غيره من الأديان والإيديولوجيات، ولكن الأفكار الجميلة، والمعتقدات الإيمانية لا يمكن إقناع الآخرين بها ما لم تكن مصحوبة بالعرض المناسب، فالقرآن الكريم يدعونا إلى التحلي بالحكمة في عرض الإسلام، يقول تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾[١].

فالدعوة إلى الله ما لم تكن مصحوبة بالحكمة في العرض والأسلوب قد تتحول إلى معول هدم ضد الإسلام ! وكم من أساليب خاطئة في الدعوة إلى الله تعالى قد نفرت المخاطبين بها عن الإسلام، وعن القيم الروحية والأخلاقية !

إن من أهم الأمور التي يجب على الدعاة إلى الله تعالى أن يتعلموها -وخصوصاً في بلاد الغرب- أن يدرسوا أساليب العرض، وفنون الإقناع للآخرين، كي يمكنهم التأثير الإيجابي على من يتلقى تلك العقائد والأفكار.

---

(١) سورة النحل: الآية ١٢٥.

٣- رفع شعار اللاعنف:

إن المعتقدات الدينية محلها القلب ولذلك لا يمكن إقناع الآخرين بها إلا من خلال الاقتناع بها عن وعي وبصيرة، أما إذا كانت بالإكراه والجبر فلن يكون لها أي تأثير قلبي أو اقتناع عقلي بها، لذلك قال الله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾[1] لأن الإيمان بالدين لا يمكن أن يتم إلا من خلال القناعة والاقتناع، أما بالإكراه فقد يتظاهر الإنسان بالإيمان بالدين تحت التهديد ولكنه غير مؤمن به في قلبه وعقله.

ونقصد بالحديث عن اللاعنف جميع أشكاله وأساليبه، من غير فرق أن يكون بالقول أو بالفعل، وإن كان الثاني أشد ضرراً، سواء استخدم في نشر الأفكار والمعتقدات، أو من أجل تحقيق أهداف سياسية أو غيرها.

فمن الواضح أن استخدام العنف كوسيلة للتغيير أو لتحقيق أهداف سياسية معينة قد ساهم بصورة كبيرة في تعميق الأزمة بين الغرب والمسلمين، ويتساوى في ذلك استخدام العنف من قبل الغرب ضد المسلمين أو من قبل الجماعات التي ترفع راية الإسلام ضد الغرب.

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٦.

وعندما نقرأ التاريخ سنجد أن استخدام العنف يعود بأضرار كبيرة على من يمارسه أو يُمارَس ضده، ولم تستطع أي دولة أو جماعة تحقيق أهدافها كاملة من خلال استخدام وسائل عنيفة محضة. ولذلك يجب أن يكون ردنا على ما قامت به الصحف الغربية حضارياً وبعيداً عن استخدام أية أساليب عنفية، لأن استخدامها سيعطي صورة خاطئة أيضاً عن الإسلام والمسلمين، وسيعمق من أزمة عدم الثقة بين المسلمين والغرب، ولن يحقق أية أهداف استراتيجية للأمة الإسلامية.

واستخدام (اللاعنف) سواء في القول أو الفعل، هو الطريق الأسلم والأقصر لتحقيق الأهداف، وهذا بالطبع لا يعني التنازل عن الثوابت، أو السكوت عن الظلم، أو الاستسلام للعدو، إذ لكل قاعدة استثناء، ومنها استثناء حالة الاحتلال للوطن.

٤- الاستعداد للتنافس الحضاري:

إن ما شهده العالمين العربي والإسلامي من ردود فعل تجاه ما قامت به الصحف الغربية من تشويه لشخصية نبينا ﷺ، ومنها الدعوة لمقاطعة بضائع تلك الدول، أو ما سبق ذلك من مقاطعة للبضائع الأمريكية كرد على دعم أمريكا لإسرائيل المحتلة لفلسطين، هي مواقف احتجاجية مطلوبة ما دامت سلمية، ولكنها غير كافية لأنها قصيرة الأمد، ولا تؤدي

إلى النتائج المطلوبة.

والمطلوب هو الاستعداد والعمل عن أجل تأهيل العالم الإسلامي كي يمتلك القدرة على التنافس الحضاري مع الغرب. والمقصود بذلك العمل على امتلاك أسرار التقدم الحضاري من صناعة وتقنية وتكنولوجيا واقتصاد ومعرفة... وغير ذلك من علوم العصر.

إن ما يجعل الغرب يتجرأ على دعم أعدائنا، وتشويه مقدساتنا، والتجاسر على شخصية نبينا ﷺ هو التخلف الحضاري الذي يعاني منه مسلمو اليوم في مختلف المجالات والأصعدة.

وبالرغم من الإمكانات الهائلة التي يمتلكها العالم الإسلامي في كل شيء، إلا أن ضعفه عائد إلى غياب التخطيط، وسوء التوزيع للثروات، وانعدام الحريات العامة، وعدم الاهتمام بالتصنيع في المجالات المتقدمة، مما سَهَّل على الغرب أن يفرض توجهاته السياسية والاقتصادية على بلاد المسلمين.

وكي نفرض احترامنا على الآخرين لابد من أن نبني أنفسنا علمياً، وننهض من سباتنا، ونعمل على تطوير صناعاتنا، ونبدع ونبتكر في مختلف الميادين والأصعدة، وهذا هو الرد الحقيقي على ما قام به الغرب طوال القرنين الماضيين ضد

العالم الإسلامي.

أما ردود الأفعال الانفعالية تجاه كل حدث فلا يعدو كونه مؤقتاً بسخونة الحدث ثم يعود ما كان كما كان، مثل ما حدث مع مقاطعة البضائع الأمريكية احتجاجاً على الدعم اللامحدود لإسرائيل، ثم ضعفت تلك المقاطعة مع مرور الوقت، ونفس الكلام ينطبق على المقاطعة للبضائع الدنماركية أو غيرها، لكن هذا لا يعني أن المقاطعة ليست أمراً جيداً، بل هي أسلوب حضاري، فالأمريكان قاطعوا البضائع الفرنسية احتجاجاً على عدم دعم فرنسا لأمريكا في حربها على العراق؛ لكن المشكلة أنها مؤقتة وغير فعالة على المدى البعيد ما لم ترافقها خطة لتطوير الصناعة في المجتمعات المسلمة، وتوفير البدائل. ولذلك فالمفروض أن نضع الخطط، ونخطط للمستقبل، ونبحث عن أسرار التقدم العلمي والحضاري، ونبدأ في العمل الجاد من أجل اللحاق بقطار التقدم الهائل في هذا العصر، وبذلك نصنع البدائل، ونتحول من ردود الأفعال إلى صناعتها، ومن الانفعال المؤقت إلى الفعل الدائم، ومن الاستهلاك إلى الإنتاج، ومن الاستنكار إلى الإبداع.

فهل نحن فاعلون؟!

أسرار السقوط الحضاري للعالم الإسلامي

يُعد (السقوط الحضاري) للأمة الإسلامية من أهم الشواغل والهموم التي تشغل العقل المسلم، وتستحوذ على تفكير كل مفكر ومصلح مخلص لأمته وهويته وحضارته؛ فمفاعيل (السقوط الحضاري) لم يقتصر على جانب دون آخر، بل عَمَّ كل جوانب الحياة، وعلى مختلف الأصعدة والمفاصل الرئيسة في حياة الأمة.

وما يعانيه العالم الإسلامي اليوم من تخلف مريع عن قطار الحضارة الحديثة يشير إلى مستوى التقهقر الحضاري الذي ترك بصماته الواضحة في كل شيء، وعلى كل شيء.

وقد حاول الكثير من الكتاب والمفكرين والباحثين التعرف على أسرار (السقوط الحضاري) الذي يمر به العالم الإسلامي منذ فترة طويلة، وبالرغم من تعدد التشخيص لهذا الداء الذي ابتليت به الأمة الإسلامية، إلا أن الداء نفسه واضح،

ولا يحتاج إلى إثبات من شدة وضوحه، وإن تعددت وصفات الدواء له.

ولنحاول معرفة أسرار (السقوط الحضاري) للعالم الإسلامي، والتي يمكن تلخيصها في الحقائق التالية:

١- الدكتاتورية والاستبداد:

عانى العالم الإسلامي في مجمله ولا يزال من تفشي ظاهرة (الدكتاتورية والاستبداد) في الأنظمة السياسية منذ فترة طويلة، وقد أدى هذا الاستبداد إلى خنق الحريات العامة، وعدم احترام حقوق الإنسان، وغياب النقد بمختلف أشكاله، ومنع المحاسبة والمراقبة للشأن العام، وإلغاء مؤسسات المجتمع المدني، والقضاء على الإبداع والابتكار؛ وبكلمة واحدة: الاستبداد سر البلاء المبرم، ومنبت كل شر، ومنبع كل فساد.

لقد سجل لنا التاريخ عبر صفحاته مدى التقدم الذي وصلت إليه الأمة الإسلامية عندما كانت تعيش أجواء نسبية من الحريات العامة، وعندما حلَّ الاستبداد حلَّ معه كل تخلف وتقهقر؛ وإذا ما أردنا أن ننهض من جديد فلا سبيل أمام العالم الإسلامي سوى القضاء على الاستبداد والدكتاتورية، وإشاعة الحريات العامة، واحترام حقوق الإنسان، وتعميق ثقافة الديمقراطية بما يتناسب والمجتمعات الإسلامية.

٢- الفساد الشامل:

ظاهرة الفساد الشامل والذي عَمَّ مختلف جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية وغيرها، قد أدى إلى (السقوط الحضاري) الذي لازال العالم الإسلامي يدفع أثماناً باهضة له.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة بوضوح في كثير من الآيات الشريفة، كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾[5]، وغيرها من الآيات الشريفة التي تربط بين

(١) سورة الإسراء: الآية ١٦.
(٢) سورة الأنبياء: الآية ١١.
(٣) سورة الحج: الآية ٤٥.
(٤) سورة الحج: الآية ٤٨.
(٥) سورة القصص: الآية ٥٨.

الفساد وانهيار الحضارات، وتدمير الأمم؛ فالفساد هو أحد الأسرار المهمة لسقوط الحضارات، ودمار الأمم والشعوب كما أكد القرآن الكريم على ذلك.

ولا يمكن للعالم الإسلامي كما لغيره من الأمم أن يتقدم وينهض حضارياً ما دام الفساد يعشعش في أحشائه، فالبداية للنهوض -إن أردنا ذلك- أن نعالج (مرض الفساد) المنتشر في جسد الأمة، والذي أصاب جميع مفاصله الاقتصادية والسياسية والثقافية والاجتماعية.. إلخ.

٣- غياب التخطيط:

توجد قاعدة في علم الإدارة تقول: (يجب أن تعلم أنك إذا فشلت أن تخطط لمستقبلك فقد خططت لفشلك، أما إذا نجحت في أن تخطط لمستقبلك فقد خططت لنجاحك وتفوقك).

هذه القاعدة المهمة تنطبق على مختلف الحقول بما فيها الحقل السياسي، فقد أدى غياب التخطيط الاستراتيجي لسقوط العالم الإسلامي، بل واستمرار هذا السقوط إلى الآن !!

فنحن أمة لا نخطط لحاضرنا فضلاً عن مستقبلنا، وهو أمر يدعو للدهشة والاستغراب، ولكنه الحقيقة المرة !

لقد سقط العالم الإسلامي بفعل التخطيط الاستراتيجي

الذي كان يخططه الغرب لإسقاط الخلافة العثمانية، وقد نجح في تخطيطه، واليوم تتكرر نفس التجارب، الغرب يخطط ثم ينفذ، ونحن ننتظر ماذا يخبئه لنا الغرب من مخططات ذكية !

والأنكى من ذلك، أننا لا نخطط حتى لأنفسنا؛ فمشاكل العالم الإسلامي في ازدياد مطرد من: تزايد أعداد العاطلين عن العمل يومياً، مروراً بالأخطاء الاقتصادية المتكررة، وليس أخيراً: تضاعف نمو الفقر والجهل والمرض في كل مكان من عالمنا الإسلامي !

ومن الغريب أن عالمنا الإسلامي على كبره واتساع رقعته، وكثرة أعداده، يفتقر إلى مراكز دراسات استراتيجية مؤثرة، تخطط للحاضر والمستقبل، وهو أحد أسرار تخلف العالم الإسلامي؛ بَيْدَ أن أي تقدم يحتاج في البداية إلى تخطيط استراتيجي، فلا يمكن لأمة من الأمم أن تتقدم حضارياً بدون رؤية استراتيجية، أو خطة مخططة بدقة، وإذا ما فشلنا في التخطيط لمستقبلنا فقد خططنا لفشلنا !

وخلاصة القول: إن هذه أهم أسرار (السقوط الحضاري) للعالم الإسلامي، بالإضافة إلى أسرار أخرى كالتجزئة والتقسيم الذي مني به العالم الإسلامي، والاستعمار الظاهر والباطن.. وغير ذلك من الأسرار الواضحة؛ وقد أدى هذا التخلف

الحضـاري إلـى تداعيات خطيـرة على الأمة الإسـلامية جمعاء من قبيـل: الضعف الاقتصـادي، والانهزام العسـكري، والتبعية السياسية، والتخلف العلمي والتقني.. وغير ذلك كثير.

ولا خيار أمام العالم الإسلامي إذا ما أراد النهوض الحضاري إلا سلوك طريق الديمقراطية، وإشاعة الحريات العامة، فالحرية أساس كل تقدم وتطور حضاري، وتعميق الوحدة الإسلامية بما يُسهم في توحيد (الهوية السياسـية) للعالم الإسلامي، والقضاء على الفسـاد المستشري في جميع مفاصل الأمة الرئيسة، وإقامة مراكز متطورة وفعالة للتخطيط الاسـتراتيجي، كي ترسـم للقادة خرائـط العمـل للنهـوض الحضـاري، وامتلاك أسـرار المعرفة العلمية، فهذا هو طريق النهوض الحضاري.

فهل نحن فاعلون؟!

الدولة المدنية وإشكالية المصطلح

مفهوم (الدولة المدنية) مفهوم حديث، وقد تكرس هذا المفهوم بعد انتصار العلمانية على الكنيسة في الغرب بعد صراع مرير بين الطرفين، نتج عنه استقلال أجهزة الدولة من تدخلات الكنيسة وسلطتها، واقتصار دور الكنيسة على التوجيه الروحي والمعنوي لأتباعها؛ بعد ما كانت ممسكة بكل مفاصل الدولة في البلاد الغربية.

ومع مرور الزمن تحول مفهوم (الدولة المدنية) للتعبير عن الدولة العصرية والحديثة القادرة على استيعاب المتغيرات المتسارعة في مختلف مجالات الحياة، كما أن مؤسسة الدولة في الغرب قد تطور كثيراً سواء في آلياتها وأجهزتها، أم في طريقة إدارتها وتنظيمها، أم في وظائفها ومهامها؛ إذ أن مصطلح (الدولة) قد بدأ تداوله منذ القرن الثاني عشر الميلادي، وأخذ هذا المصطلح في التبلور والتطور ليعبر عن دلالات معينة؛

فالدولة الحديثة في الجغرافيا السياسية تتكون من مقومات ثلاثة وهي: الشعب، والأرض، والسلطة الحاكمة.

وبالرغم من السياق التاريخي لمفهوم (الدولة المدنية) في الغرب، وهو ما قد يثير حساسية بعض المسلمين من تبنيه باعتباره وليد الثقافة الغربية؛ إلا أن هذه الحساسية تنعدم أو هكذا يجب أن يكون مادام المفهوم قد انفصل عن سياقه التاريخي. كما أن هذا المفهوم قد تطور أيضاً فأخذ يعبر عن القيم المثلى في (الحكم الصالح) كقيمة العدالة، وقيمة المساواة، وقيمة الحرية، وقيمة احترام حقوق الإنسان، وقيمة سيادة القانون.... إلى آخر ما هنالك من قيم ومثل تشكل بمجموعها (الحكم الصالح) للمجتمع وهو ما يدعو إليه الإسلام أو يشجع عليه أو لا يمنع منه مادام لا يتعارض معه.

وعندما نتأمل في النصوص الدينية لا نرى فيها ما يدعو إلى شكل محدد للدولة، وإنما نجد الكثير من النصوص التي تؤكد على القيم والمبادئ التي يجب أن تستند إليها الدولة، وبعبارة أخرى: يمكن القول أن الإسلام يركز على المبادئ والقيم السياسية، ويترك شكل الدولة وطريقة إدارتها للمتغيرات الزمانية والمكانية؛ فالدولة باعتبارها ضرورة من ضرورات الاجتماع السياسي يجب أن تقوم للحفاظ على النظام والانتظام،

وتنظيم إدارة شؤون الناس، أما شكلها ولونها وطريقتها فهي متروكة للناس أن يطوروا فيها بما تقتضيه مصالحهم التي تتغير من حين لآخر.

والدولة المدنية كتعبير حديث عن عصرنة الدولة وتحديثها بما يتلاءم مع التغيرات الجديدة،لا تتعارض مع تطبيق الشريعة الإسلامية، مادامت الدولة مرجعيتها الإسلام، أو هكذا يجب أن تكون في البلاد الإسلامية، فالدولة الحديثة بما فيها من آليات ونظم وقوانين إذا لم يكن فيها ما يتعارض مع ثوابت الإسلام الكلية فلا يوجد ما يمنع من تطوير الدولة والاستفادة من تجارب الأمم المتقدمة كمنجز إنساني يجب استثماره لصالح تقدمنا وتطورنا.

وقد كانت البلاد الإسلامية ومنذ قرون سالفة تعاني من مشكلة تبني الدولة لمذهب معين أو لمدرسة فقهية معينة، أو لتيار ديني محدد؛ وأكبر مثال لذلك ما حدث أيام الدولة العباسية عندما حدثت فتنة خلق القرآن، أو تبني مدرسة المعتزلة أو الأشاعرة؛ وقيام الدولة بقمع بقية المذاهب والمدارس الفقهية والكلامية تحت شعار (تطبيق الشريعة) وهو في الحقيقة لايعدو كونه تبني لرأي واحد أو لمدرسة واحدة؛ وهو ما أدى إلى تقليص مساحة الحريات العامة، والقضاء على الإبداع

العلمي والثقافي، وقمع الرأي الآخر... وهو ما يتنافى مع الفكر السياسي الإسلامي. في حين أن على الدولة أن ترتكز على مرجعية الإسلام، وتعطي الحرية المتكافئة للجميع ليعبروا عن أفكارهم ومذاهبهم ومدارسهم المتنوعة.

ومن جهة أخرى فإن مفهوم (الدولة الدينية) كمصطلح لم يرد في النصوص الدينية؛ بمعنى أن قيم ومبادئ الإسلام السياسية لا تؤسس لحكم ثيوقراطي، وإنما المطلوب هو التزام الدولة كمؤسسة تنظيمية بمرجعية الإسلام، و منع سن أي قانون مخالف لثوابته القطعية، أما الاستفادة من القوانين الحديثة فهو شيء مطلوب كقانون المرور أو قانون الإدارة أو قانون العمل أو غيرها من القوانين التي لم يرد فيها نص صريح، ولا يوجد فيها ما يخالف الشرع المقدس.

ومفهوم (الدولة الدينية) ناتج من الخلط الواضح بين ضرورة أن تكون مرجعية الدولة في البلاد الإسلامية هو الإسلام، وبين آليات ووسائل وطرق إدارة الدولة، فالتزام الدولة بالمرجعية الإسلامية لا يعني تأسيس نظام حكم ثيوقراطي، وإنما يعني أن تسن القوانين في الدولة الإسلامية وفق الشريعة الإسلامية أو بما لا يتعارض معها، أما أن يكون الحاكم عالم دين أو عالم دنيا فهذا خاضع لاختيار الناس، على أساس أن العلاقة بين الحاكم

والمحكومين يجب أن تنبثق من صيغة تعاقدية بينهما، مرتكزة على الاختيار وليس القهر والغلبة؛ فالدولة ليست بديلة عن الناس وإنما هي تعبر عن إرادتهم السياسية والقانونية والتنظيمية في الشؤون العامة.

وعندما نحاول أن نقرأ مسيرة وتطور الدولة كمفهوم وواقع له دلالات منذ القدم وحتى الآن فسنجد التطور الهائل في آليات الدولة وطرق إدارتها وتنظيمها، فالدولة في الماضي كانت بسيطة، وتدار بطريقة سهلة، أما الآن فأصبحت الدولة جهاز تنظيمي ضخم جداً، وتدار بطريقة أكثر تنظيماً، وأدق إدارة، وأكبر استفادة من التقنية عالية الجودة؛ إذ أصبحنا الآن نتداول مفهوم (الدولة الإلكترونية) وهو ما كان مفقوداً حتى وقت قريب.

والإسلام الذي يشجع على التطور والتقدم ويدعو إليه فيما يرتبط بالوسائل والآليات، لا يمانع من تطور الدولة وتحديثها بما يخدم مصالح الناس ويحافظ على مكانتها واستمرارها باعتبارها ضرورة من ضرورات الاجتماع الإنساني والسياسي.

ومفهوم (الدولة المدنية) إذا كان يعبر عن التطور والتحديث المستمر في الآليات والإدارة والتنظيم، فهو ليس فقط لا يتعارض مع الإسلام؛ بل هذا ما يدعو إليه الإسلام

ويشـجع عليـه، فنحن هنا لا نتحدث عن الثوابـت التي لا بطالها التغييـر ولا التبديل، وإنما نتحدث عـن الجانب المتغير والقابل للتغيير كالآليات الحديثة في إدارة الدولة وتطويرها.

والمهم في الموضوع ليس هو المصطلح بحد ذاته، وإنما مفهومـه ومحتـواه، فـإذا افترضنـا أن هنـاك من يريد مـن مفهوم (الدولة المدنية) عزل الدين عن الحياة وتعليق الالتزام بمرجعية الإسلام، فهذا أمر مرفوض من كل مسلم. أما إذا كان الهدف منه هـو تطوير الدولـة وتحديثها بما يضمن الحفـاظ على المصالح العامة، وتوفير الحريات العامة للناس، وسـيادة القانون، وتكافؤ الفـرص أمام كل المواطنين، وتعميق مفهوم المواطنة... فهذا ما يجب أن تقوم به الدولة الحديثة، ولنسـمها بعد ذلك بأي مفهوم يحبه الناس!

ثبت المصادر والمراجع

١- **القرآن الكريم**.

٢- ابـن هشـام، أبو محمـد عبد الملـك بن هشـام المعافري، **السـيرة النبوية**، المكتبة العصرية،بيروت - لبنان، طبع عام ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، غير مذكور عدد الطبعة.

٣- الشيرازي، السيد محمد مهدي، **السلم والسلام**، دار العلوم، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٤- الشـيرازي، ناصـر مـكارم، **الأمثـل في تفسـير كتـاب الله المنـزل**، مؤسسـة البعثة، بيـروت - لبنـان، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

٥- الطبرسـي، أبو علي الفضل بن الحسـن، **مجمـع البيان في تفسير القرآن**، دار المعرفة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٦- المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي، **بحار الأنوار**، مؤسسة

أهل البيت، الطبعة الرابعة ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٧- اليحصبي، القاضي أبي الفضل عيَّاض(المتوفى ٥٤٤هـ)، **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**، المكتبة العصرية، بيروت - لبنان، طبع عام ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

المحتويات

للتواصل مع المؤلف

المملكة العربية السعودية - المنطقة الشرقية ص. ب: ٨٤١ القطيف ٣١٩١١	
٠٠٩٦٦٥٠٣٨٤٤٩٩١	
البريد الإلكتروني: alyousif@alyousif.org alyousif50@gmail.com الموقع على الإنترنت: www.alyousif.org	
صفحة الفيس بوك: http://www.facebook.com/alyousif.org	facebook
قناة اليوتيوب: http://www.youtube.com/alyousiforg	YouTube